

لغة الحوار فى سورة يوسف

دراسة أسلوبية

(أقوال يوسف وإخوته وامرأة العزيز نموذجاً)

دكتور / أحمد جمال الدين

كلية الآداب بالإسماعيلية

جامعة قناة السويس

أولاً – مقدمة نظرية :

الحوار بين الشخصيات إحدى طرائق السرد القصصى ، يوظفه السارد فى بناء حكايته . ولما كانت فنية السرد تكمن فى اختيار وإتقان وسيلة توصيل القصة إلى المتلقى فإن فنية الحوار – الذى هو ذاته وسيلة من وسائل السرد القصصى – تكمن فى اختيار السارد وإتقانه للغة المتحاورين ، بحيث يجعلها لغةً معبرةً عن أصحابها ، لغةً ذات دلالة تنطق بمواقفهم وتعبر عن اتجاهاتهم ، سواء كانت هذه المواقف والاتجاهات ظاهرة واضحة أو خفية عميقة فى عالم اللاشعور .

ويكون دور القارئ الواعى هو مراودة هذه اللغة الحوارية حتى تفكّ له شفرتها فيدخل من خلالها إلى عالم شخوص القصة ويطلع على ما تظهره الشخصية بل وما تخفيه من رغبات ومواقف وخصال وسجايا .

إن قراءة لغة الشخصيات بهذه الطريقة تجعل اللغة ليست مجرد وسيلة من وسائل التحليل الأدبى بل تتجاوز ذلك إلى كونها وسيلة من وسائل التحليل النفسى ، وهذا ما أكده (لاكان) أحد أشهر علماء النفس فى العالم وتلميذ (فرويد) حين أضاف اللسانيات إلى قائمة العلوم التى يجب أن تُدرس فى كلية التحليل النفسى بالإضافة إلى البلاغة .

ويعلق (مالكولم بوى)^(١) على اهتمام لاكان باللغة فى مجال التحليل النفسى بقوله : إن المحلل المطلع على البلاغة أقدر من زميله على ملاحظة انعطافات الاستخدام العادى التى تشكل الأسلوب^(٢) .

(١) لاكان العودة إلى فرويد وأسلحة التحليل النفسى لمالكولم بوى ترجمة عبد المقصود عبد الكريم على الرابط .

http://www.nizwa.com/volume14/p31_50.htm

(٢) لم يعدم القدماء الحديث عن الأسلوب فقد تناوله عبد القاهر الجرجاني فى سفره العظيم دلائل الإعجاز وعرفه بقوله : والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه . (دلائل الإعجاز ص ٤٦٨ ، ٤٦٩) .

إلا أن الجانب النفسى للمتكلم بكل مكوناته من بيئة وثقافة وتربية لا يُعزى إليه وحده تشكل أسلوب صاحبه . فهناك أيضاً جانب المخاطب بمكوناته النفسية والبيئية والثقافية ... إلخ ، فطبيعة المتلقى تسهم فى الصياغة الأسلوبية لمنشئ النص . وينضاف إلى هذين الجانبين العلاقة بينهما والمكان والزمان اللذان يدور فيهما الحوار وما فيهما من شخوص وأشياء .

إن هذه الجوانب جميعاً هي ما يسميه القدماء بالمقام أو سياق الحال

non Linguistic context

إلا أننى أرى أن أهم هذه الجوانب تأثيراً فى الأسلوب هو جانب المتكلم ؛ لأنه هو المنشئ للكلام ، يخرج الكلام مصبوغاً بأحاسيسه ومشاعره ثم قد يبدو فى الظاهر مخالفاً لحال المتلقى أو حال أى جانب آخر من جوانب المقام . والكلام حينئذ لا ينبع ؛ لأن المحك الأول إنما هو تعبيره عن ذات صاحبه⁽¹⁾.

عوداً على بدء فإن هذه الجوانب – أو أحدها على الأقل – والتي أميل إلى تسميتها بالمشكلات الأسلوبية ؛ لها دور مهم فى تشكل أسلوب المتكلم فى مختلف الأشكال الأدبية بوجه عام وفى المشاهد الحوارية بوجه خاص . وسوف يقوم البحث بتفسير الأساليب الجارية على السنة المتحاورين بعد وصفها على مستوى الصياغة اللفظية .

إلا أنه من المفيد أن نلاحظ أمرين فى النص الذى اخترناه مداراً للبحث قبل أن ندافع إلى عالمه :

أولاً : سورة يوسف نص قرآنى اشتمل على كثير من تقنيات السرد القصصى مثل : الاستباق والوقفات الوصفية والمشاهد الحوارية والحذف ، فالحوار إذن وسيلة من وسائل متعددة للسرد القصصى فى السورة تسهم جميعاً فى تنامى الأحداث والكشف عن طبيعة الشخصيات والمواقف .

(1) عاب بعض النقاد على المتنبي مدحه كافوراً الإخشيدى بقصيدة ابتدأها بقوله :
كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانياً
حيث رأوا أن فى هذا البدء عدم مناسبة لمقتضى المقام الذى هو المدح ، لما ورد فيه من ألفاظ : الداء - الموت - المنايا .
إلا أن هذا العيب يسقط إذا ما علمنا أن المتنبي لم يحب كافوراً الإخشيدى فى يوم من الأيام وأنه كان يحتقره فى قرار نفسه ، ولا يراه بحال من الأحوال بديلاً عن سيف الدولة الذى تمكن حبه فى قلب المتنبي .
فجاء البدء معبراً عن دفينة نفسه مصبوغاً بأحاسيسه الحقيقية تجاه كافور ؛ وعلى هذا فإن البيت يعبر عن نفس الشاعر وما يختلج فيه من مشاعر وأحاسيس ، فإن كان فى البدء إخلالاً بالمقام الخارجى الذى هو المدح طلباً للعتاء ففيه تعبير عن المقام الداخلى الذى هو البغض .

ثانياً : الشخصيات فى القصة لم تكن عربية ولغتهم غير عربية وهذا يقتضى أن ندرك جيداً أن الأقوال المحكية عنهم بما فيها من فنيات ليست لهم وإنما هى للسارد الأعلى جلّ وعلا ، وضعها على ألسنتهم بما يعبر عن أدق مراداتهم ، بحيث تكون انعكاساً لما يختلج فى صدورهم من معانٍ تتساقق مع المقام بجوانبه المختلفة . فالنص القرآنى بوجه عام هو قرآن عربى مبین ، يبين المعانى المرادة كما أرادها أصحابها فى المقام الأول .

ثانياً – الدراسة التطبيقية :

اشتملت قصة يوسف عليه السلام على الكثير من الشخصيات منها ما هو أساسى مثل : يوسف ويعقوب عليهما السلام وإخوة يوسف وامرأة العزيز .

ومنها ما هو ثانوى مثل العزيز والملك ووارد البئر وفتى السجن وسوف نتناول أقوال ثلاث من الشخصيات الأساسية ، نظراً لأن الحوارات التى جرت على ألسنتها كثيرة ، كما أن هذه الشخصيات الثلاث المختارة تمثل أطرافاً مباشرة فى الصراع ، مما يجعل أقوالها ملتهبةً بحرارة الأحداث مشعةً للدلالات المعبرة عن المواقف المختلفة .

أولاً – أقوال يوسف عليه السلام :

إن يوسف عليه السلام هو الشخصية المحورية فى هذه القصة القرآنية ، وكان من المتوقع تبعاً لهذا أن يكثر ظهوره على مسرح الأحداث ، ولكن مع هذه المحورية نلاحظ قلة الأقوال المنسوبة ليوسف عليه السلام ولاسيما فى بداية القصة .

ذلك حيث ظهر فى ثلاث حوارات فقط ، فى الفترة الزمنية : من بداية القصة حتى سجنه فى مصر ، وهى حوارات قليلة جداً للشخصية الأولى فى القصة على امتداد هذه الفترة الزمنية الكبيرة . وهذه الأقوال وردت كالتالى :

فى حوارهِ مع أبيهِ حاكياً له حلمه :

ياأبت إني رأيت أحد عشر كوكباً... (٤)

وفى حوارهِ مع امرأهِ العزيز حين راودته عن نفسه :

معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي... (١٣)

وفى حوارهِ مع العزيز حين اتهمته امرأته :

هى راودتنى عن نفسى ... (٢٦)

وهذه القلة الملحوظة في اللغة المحكية عن يوسف عليه السلام يعكس بوضوح دلالة أراد الله أن يعلمها كل قارئ للقرآن وهي أن يوسف عليه السلام قليل الكلام لا يتكلم إلا إذا اقتضى المقام فيها هو لا يتكلم إلا في مقام حكيه الحلم الغريب لأبيه ، وفي مقام الاستعاذة بالله من الوقوع في المعصية وحفظ الجميل لربه الذي أحسن مثواه والمقام الثالث ، في هذه الفترة الزمنية ، هو مقام الدفاع عن الذات من تهمة هو منها برى ٤٠ .

فيوسف هادئ الطبع يغلب عليه الصمت الذي هو وليد الفراسة وكثرة التأمل ، وهو مع ذلك كان مصدر حقد إخوته الذين هالهم حبُّ أبيهم له وأفضَّ مضجعهم حُظوته عنده ، وبنظرة سريعة إلى الأقوال المحكية عن إخوته في نفس الفترة الزمنية نجد أنها ستة أقوال ، أي ضعف الأقوال المحكية عن يوسف في نفس الفترة الزمنية ، وهي مع كثرتها تتسم بطول التركيب والتكرار وكثرة المطالب ، وهذا يعكس فراغ هؤلاء من كل شئ ذي بال إلا من الحقد على يوسف والكيد له بالخدعة والكذب والغرور .

وكان لسان حال يوسف عليه السلام ينطق بما نطق به المتنبي في قوله :

أَنَامُ مِلءَ جُفُونِي عَن شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من غلبة الصمت الناشئ عن كثرة التأمل والفراسة وأنه لا يتكلم إلا في حق وإذا ما اقتضى المقام ، أنه في مقام الدعوة إلى الله تعالى نجده يتكلم ويتكلم كثيراً ، فتحكى لنا الآيات من (٣٧ إلى ٤٠) أطول حديث من يوسف عليه السلام ، وهو حديثه مع صاحبيه في السجن حين استفتياه في حلمين رأياهما في المنام فلم يفتهما في الحلمين مباشرة وإنما سلك مسلك الدعوة إلى الله عزَّ وجل ، وكأنه وجد الفرصة سانحة كي يدعوهم إلى الإيمان ، ذلك الذي يملأ قلبه وحياته ويجعله موصوفاً بأنه قليل الكلام إلا فيه وفي حق منه يدينه .

نعم لم يفتهما في حلميهما بمجرد سؤالهما له ، وإنما أخذ يدعوهم إلى الله متبعاً كل وسيلة للدعوة ، فأراد أن يكسبهما ثقةً فيه كبيرة بأنه يمكن له أن ينبئهما بالطعام الذي يأتيهما قبل أن يأتيهما ، وأن هذا ليس من علم عنده بالغيب ، وإنما هو مما علمه ربه ... ثم أخذ يتحدث عن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله وبالآخرة وأنه يعبد الله الواحد الأحد وأن ذلك هو طريق آباءه إبراهيم وإسحق ويعقوب ... ثم استنكر ما يعبدون من

دون الله وأن عبادة الله الواحد القهار خير فهذا هو الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وأخيراً أفاتهما فيما رآياه .

انظر كيف يكون حال المحب مع محبوبه إنه لا يملُ من الحديث عنه واما يجذب القلوب إليه ، ويدخر كل كلام إلا فيه أو في حق منه يدينه .

ولايدانى هذا الحديث الطويل ليوسف عليه السلام فى هذا الموضوع سوى موضع آخر ، وهو أيضاً فى حديثه عن الله وذلك فى ختام القصة (الآيتان ١٠٠ ، ١٠١) حين اجتمع مع أبيه وإخوته فى مصر حيث ذكرَّ أباه بالرؤيا القديمة ، وأن الله قد حققها وأخذ يثنى على الله بما هو أهله ، حيث أخرجهم من السجن وجمعه بأهله وكان لطيفاً فى مشيئته معه عليماً حكيماً ، ثم أخذ يناجى ربه مقراً بنعمه جلَّ شأنه عليه وختم هذا كله بالدعاء لنفسه بأن يتوفاه الله مسلماً وأن يلحقه بالصالحين .

ومن خصائص اللغة المحكية عن يوسف عليه السلام الآتى :

أ- وصف غير العاقل بصفه العاقل :

وذلك فى قوله تعالى : " ساجدين " (من الآية ٤) حيث يذكر النحاة أنه لما كان السجود صفة من صفات العقلاء وصفت الكواكب والشمس والقمر بصيغة جمع المذكر السالم التى هى للعقلاء .

وهذا الكلام صحيح ، لكنه كلام يكتفى بتفسير إيقاع صيغة العقلاء (ساجدين) على غير العقلاء (الكواكب والشمس والقمر) ، وذلك بملاحظة المعنى المعجمى للكلمة ، حيث يقولون : وجمعهم جمع من يعقل لصدور السجود له وهو صفة من يعقل^(١). وهذا التفسير يبعد القارئ عن تصور الرؤيا التى رآها ذلك الطفل الصغير .

وإننى لأتساءل كيف يكون من الكواكب والشمس والقمر سجود يدرك هذا الغلامُ

أنه سجود إلا إذا كان على هيئة سجود البشر الذين يراهم يوسف فى حياته !!؟

إننى أتصور أن هذه الكواكب والشمس والقمر أتت إليه فى الرؤيا على صورة بشرية مع وجود قرينة تشير إلى أصلها ، كأن تكون وجوههم - مثلاً - هى الكواكب والشمس والقمر ، وبقيتهم على هيئة البشر أو نحو ذلك .

(١) انظر : البحر المحيط ٢٨١/٥ .

ومن ثم يستطيع يوسف أن يدرك أنهم يسجدون ، وإلا فإن إدراك يوسف عليه السلام لسجود هذه الأشياء أمر يكاد يكون محالاً ؛ إذ لا يعرف أحد من البشر الهيئة التي يكون عليها سجود هذه الأشياء .

وعلى هذا فإنه يغلب على تصوري أن صيغة (ساجدين) جاءت على أصلها ؛ حيث رأى يوسف بشراً يسجدون بالهيئة المعروفة للسجود ، ولكن بقرينة ما علم يوسف أن هؤلاء البشر يمثلون الشمس والقمر والكواكب .

ب- إيثار المضمير الغائب على المظهر وضمير المخاطب :

ففي قوله تعالى حاكياً عن يوسف :

"هي راودتني عن نفسي" (من الآية ٢٦)

لم يبتدئ التعبير القرآني بالاسم الظاهر :

(سيدتي ، زوجتك ، امرأتك) موجهاً كلامه للعزيز .

ولا(أنت) موجهاً خطابيه لامرأة العزيز .

وإنما أثر التركيب القرآني ضمير الغائب (هي) بإيقاعه السريع الخفيف على اللسان ، وهذا يشير إلى ما عليه يوسف من حرج شديد وهو يقف أمام سيده وامرأته التي تتهمه ظلماً ، هذا فضلاً عن حيائه الشديد من سيده ، ذلك الذي يحفظ له يوسف جميل تربيته والإحسان إليه ، فلا يريد أن ينسبها إليه في مثل هذا الموقف ، وكذلك لا يريد خطابها مباشرة في حضرته .

ومما يؤكد حرج وحياء يوسف من هذا الموقف ، ذلك التركيب القصير جداً في مقامٍ خطير كمقام دفع تهمة كبيرة كتهمة مرادة امرأة سيده ، إنه لم يتكلم كثيراً واكتفى بقوله : (هي راودتني عن نفسي) وكأني أراه يتكلم بانكسار لا يكاد يقيم وجهه في عين العزيز ليس عن خجل من شيء فيه معرفة ، حاشا لله ، فيوسف النبي المعصوم لا يرتكب ما فيه معرفة ، وإنما عن حياء شديد من سيده وحرج كبير من هذا الموقف .

ومما يؤكد أيضاً عفاف لسان يوسف الناجم عن حياء فطري ، تكنيته عن نسوة المدينة ، اللاتي حرضنه على السمع والطاعة لسيدته^(١) ، وذلك حين أبى الخروج من السجن إلا بعد أن تظهر براءته ويعلم الملك والجميع أنه دخل السجن عن ظلم وبهتان فقال فيما يحكيه عنه رب العزة : " اذهب إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٦٣ .

أيديهن إن ربي بكيدهن عليم " (يوسف ٥٠) إنه يصفهن باللاتي قطعن أيديهن وليس
باللاتي حثته على فعل الفاحشة .

إنه حياء يوسف النبي الذي يجعله لا يذكر البذىء من القول أو الفعل .
وكان الشاعر يصف خلقه فى قوله :

كثير الحيا يغضى عن الفحش طرفه ولا يذكر العوراء ممن تجهلا

ت- كثرة أفعال الطلب فى أقوال يوسف بعد ظهور براءته :

إن يوسف الذى قلَّ ظهوره على مسرح الأحداث ، واتسم منذ بدء القصة بالصمت
الطويل والحياء الكبير ، بعد أن سطعت شمس الحقيقة فأبصر الجميع وعلى رأسهم
الملك ما وقع به من ظلم طويل ، استمدَّ يوسف من هذا الحقيقة قوةً نفسية جعلت أفعال
الطلب يجرى دورانها على لسانه فهو يقول للملك :

"اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم" يوسف: ٥٥

ثم تزداد هذه القوة ، بعد أن صار عزيز مصر ، فتزداد أفعال الطلب :

— ائتونى بأخ لكم من أبيكم (من الآية : ٥٩)

— اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم " (من الآية : ٦٢)

— اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين " (من
الآية : ٩٣)

— ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين " (من الآية : ٩٩)

إن كثرة أفعال الطلب المحكية عن يوسف تعكس ما آل إليه أمر ذلك الغلام
الضعيف — الذى ألقى فى غيابة الجب والذى بيع كما يبيع العبيد والذى سجن ظلماً
ويهتاناً — إنه صار قوياً عزيزاً يطلب فيستجاب له ، يأمر فيطاع ، ثم إنه يأمر أولئك
الذين استضعفوه فى يومٍ من الأيام ، وكانوا أقوياء وهو الضعيف ، وكانوا كباراً وهو
الصغير .

حقاً " إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين "

ث- التعبير عن جهل إخوته بالظرف الماضى:

وذلك فى قوله تعالى على لسانه : "هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون"
(من الآية ٨٩)

حيث استعمل الظرف (إذ) وهو ظرف لما مضى من الزمان^(١) ، وكأن يوسف يريد أن يقول لإخوته : إنكم الآن لستم جاهلين ، ولا تثريب عليكم فيما مضى فالיום يغفر الله لكم...

وهذا يشير إلى طيب خلق يوسف وإحساسه المرهف ، فهو لا يريد أن يثقل على إخوته بثقل الحرج مما صنعوه به ، وهم يقفون أمامه موقف الضعيف من القوى ، والفقير من العزيز الغنى ، وكأنه قد نسى جهلهم عليه ؛ لأنه صار من الماضى ، أما الآن فقد منَّ الله عليه فلا مجال لإشعارهم بالحرج وهم يقفون بين يديه .

ثم يسرّ عنهم ما قد يشعرون به من همٍّ وكرهٍ شديدين نتيجة الخوف من عقاب الله بعد أن رأوا آيات نصره ليوسف المظلوم فيقول لهم فيما يحكيه عنه رب العزة : "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين" (من الآية ٩٢) .

إن النفس العظيمة هي التي تغفر الزلات العظيمة . هذا هو خير تعبير عن نفس يوسف عليه السلام الذى أخبرتنا لغته عن طيب خلقه ورهافة حسه و سماحته التى هي من سماحة الأنبياء .

ثانياً - الأقوال المحكية عن إخوة يوسف :

لقد كشفت اللغة المحكية عن إخوة يوسف عن كثير من شخصيتهم وعن علاقتهم بالمواقف التى يمرون بها بوجه عام وقد تجسد هذا من خلال بعض الأشكال اللغوية أبرزها :

أ- التوكيد ، حيث كثرت أساليب التوكيد وتنوعت فى لغة إخوة يوسف بشكل ملحوظ ، فنجد :

١. التوكيد باللام :

كما فى : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا " (من الآية : ٨)

٢. التوكيد بإن واللام :

كما فى : " إن أبانا لفى ضلال مبين " (من الآية : ٨)

" إنا له لناصحون " (من الآية : ١١)

" إنا له لحافظون " (من الآية : ١٢)

" إنا إذا لخاسرون " (من الآية : ٦١)

(١) معنى اللبيب ٩٤/١ بتصرف .

" إنا لصادقون " (من الآية : ٨٢)

٣. التوكيد بإن وحدها كما فى :

" إن له أبا شيخا كبيرا " (من الآية : ٧٨)

" إن ابنك سرق " الآية : (من الآية : ٨١)

٤. التوكيد بـ (ما) وحرف الجر الزائد :

كما فى – " وما أنت بمؤمن لنا... " (من الآية : ١٧)

٥. التوكيد بالقسم كما فى :

" تالله لقد علمتم ما جننا لفسد فى الأرض " (من الآية : ٧٣)

" تالله لقد آثرك الله علينا " (من الآية : ٩١)

" تالله إنك لفى ضلالك القديم " (من الآية : ٩٥)

٦. التكرار – كما فى :

" ونحن عصابة " (من الآيتين ٨ ، ١٤)

" إنا له لحافظون " (من الآيتين ١٢ ، ٦٣)

٧. شبه التكرار – كما فى

" إن كنا لخاطئين " (من الآية : ٩١) فى خطاب يوسف

" إنا كنا خاطئين " (من الآية : ٩٧) فى خطاب أبيهم

وهذه الأساليب التوكيدية المتنوعة لها نصيب من الدلالة على نفوس هؤلاء

الإخوة ، نذكر بعضاً منها فيما يلى :

– قولهم كما تحكى الآية (٨) : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا ...

يعبر عن رسوخ اعتقادهم بدونيتهم جميعاً عند أبيهم مقارنةً بيوسف وأخيه ، وكأنهم يسوغون لأنفسهم ما يبيتونه ليوسف من رغبة فى الخلاص منه ، تلك الرغبة التى تتأكد فى نفوسهم بعقد تلك المقابلة بينهم ، وهم الكثرة والقوة ، وبين يوسف وأخيه ، وهما القلة والضعف ، والتى تجعل من تفضيلهما عليهم شكلاً من أشكال الضلال المبين فى الأب ؛ لذا فإنهم يؤكدون اتصاف الأب بالضلال المبين بوسيلتين توكيديتين هما إن واللام ، وكان حالهم يقول : إن المقدمات المتمثلة فى تفضيل أبينا يوسف وأخاه علينا ، ونحن من نحن وهما من هما، إن تلك المقدمات التى لا نشك فيها أدنى شك تُسَلِّمُ لنتيجة واحدة مؤكدة هى اتصاف أبينا بالضلال المبين .

– وقولهم المحكى فى قوله تعالى : " إنا له لناصحون " (١١) ومثله قوله تعالى : " إنا له لحافظون " (١٢) ، وكذلك قوله عزَّ من قائل " إنا إذا لخاسرون " (١٤) كلها أساليب متوازية ، حيث أكدت جميعاً بيان واللام .

وهذا التوكيد يعبر عن شعورهم العميق بأن ثمة أزمة ثقة فى نفس أبيهم تجاههم فهم يؤكدون إخلاصهم ليوسف وحفظه وخسارتهم إن هلك منهم ، وفى الآيتين الأوليين لم يقل لهم أبوهم ما يستدعى توكيدهم رعايتهم ليوسف ، ولكن شعورهم بأنهم غير ذى حظوة عند أبيهم وأنهم ليسوا من أهل ثقته دفعهم إلى المبادرة بالتوكيد .

أما فى قولهم : " إنا إذا لخاسرون " وكذلك فى تكرارهم (ونحن عصبه) إشارة إلى رغبتهم فى أن يقتلعوا من أبيهم جذور الشك وانعدام الثقة فيهم ، وأن خوفه من الذنب أن يأكله فى غير محله فهم عصبه ، وإذا ما أكله الذنب وهم كذلك فإنهم حكموا على أنفسهم بأنهم خاسرون لا محالة ، وكأن لسان حالهم يقول :

لتكن يا أبانا مطمئناً كل الطمأنينة . فحفاظنا على يوسف مؤكد ، وهلاكه ونحن عصبه يلحق بنا الخسران المبين وهذا ما حكمنا به بأنفسنا على أنفسنا .

– وفى تكرار قولهم " إنا لحافظون " (الآيتان ١٢ ، ٦٣) دلالة غير دلالة التوكيد ؛ حيث قالوا هذه الجملة فى موقفين متباعدين ، وإن كانا متشابهين وهما :

– موقف استمالتهم لأبيهم حتى يسمح لهم بأن يأخذوا يوسف (فى الآية ١٢)

– والموقف الآخر هو موقف استمالتهم له حتى يأخذوا أبا يوسف (فى الآية ٦٣)

ودلالة هذا التكرار استبطان الحالة النفسية ليعقوب عليه السلام وهو يستمع لنفس الادعاء الذى سمعه منذ سنوات وقت ضياع يوسف ، هو نفس الادعاء بنفس الألفاظ ، وكأن لسان حاله يقول وهو يستمع إلى دعواهم بحفظ أخى يوسف : ما زلت كذبة ، كيف أتق بكم؟! أليست هذه الدعوى هى التى رفعتموها من قبل وكانت سبباً فى تركى يوسف بين أيديكم فأضعتموه ... كيف أتق بكم وأنتم تقولون " إنا له لحافظون " فهل حفظتم يوسف؟؟

إن تكرار جملة : (إنا له لحافظون) على السنة إخوة يوسف لأخذ أخيه من يعقوب دفعت يعقوب إلى استرجاع الماضى الأليم الذى ضاع فيه ابنه الحبيب يوسف .

– ثم يأتى شبه التكرار فى قولهم : إن كنا لخاطئين (٩١) ، وإنا كنا خاطئين (٩٧)

فتتضح دلالاته بتوضيح الفرق بين التوكيد بإن المخففة من الثقيلة كما فى الآيـة الأولى و(إن) الثقيلة فى الآيـة الثانية .

فأنا أرى أن (إن) الثقيلة أكثر توكيداً للكلام من (إن) الخفيفة ، قياساً على نونى التوكيد الثقيلة والخفيفة ، حيث ذكر النحاة أن النون الثقيلة أكد من الخفيفة^(١) وهذا يناسب سياق الآيتين : (إن كنا لخاطئين) و (إننا كنا خاطئين) ؛ فالآية الأولى وردت على لسان إخوة يوسف أمام أخيهم يوسف العزيز " قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم (٩١ ، ٩٢) .

أما الآيـة الثانية فقد وردت على لسانهم أمام أبيهم : " قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إننا كنا خاطئين " (٩٧) .

فالآيـة الأولى مع أنهم يخاطبون فيها من أساءوا إليه مباشرة إلا أنهم خففوا التوكيد نظراً لما رأوه من أن الله قد أنعم عليه وعوّضه خيراً ، وكأن ما فعلوه به كان سبباً لإيثار الله له ونصرته عليهم حتى صيره ملكاً وهم يمدون أيديهم إليه ، كما أنهم يعلمون أنهم يكلمون أخاهم الصغير ، فمنعهم الكبرياء من التأكيد الشديد على وقوعهم فى الخطأ .

أما الآيـة الثانية فموجهة لأبيهم الذى أساءوا إليه بحرمانه من ولده وحرقة قلبه وذهاب نور عينه ، وهو فى الوقت نفسه رجل طاعن فى السن ضعيف تؤثر فى النفوس حاله ، ويمزق القلوب مرآه ؛ لكل هذا ضعف قلب هؤلاء الإخوة أمامه واعترفوا أمامه اعترافاً صريحاً مؤكداً لا كبرياء فيه أنهم كانوا خاطئين .

— أما التوكيد بالقسم فالملاحظ استخدامهم لتاء القسم (تالله) وهى فرع على واو القسم كما أن الواو فرع على باء القسم^(٢) ، أى أن تاء القسم هى أقل أحرف القسم استعمالاً ، وفيها زيادة معنى وهو التعجب^(٣) .

وعلى هذا فإن استعمالها يكون فى المواقف الغريبة غير المتوقعة التى تبعث الدهشة والتعجب .

ففى قولهم : "تالله لقد علمتم ما جننا لفسد فى الأرض وما كنا سارقين" (٧٣) فهم فى موقف اتهام بالسرقه ، وسرقه من ؟ سرقه الملك وهذا أمر مستبعد جداً ، فهم

(١) انظر الكتاب ٥٠٩/٣ .

(٢) الجنى الدانى ص ٥٧ .

(٣) انظر : الكشاف ١٢٢/٣ .

ضيوف ضعاف أتوا يكتالون لهم ولأهليهم ، وهم فى الوقت نفسه أولاد نبى ، وهم يعلمون أنهم براءً من هذه التهمة ؛ فجاء القسم بالحرف القليل الشيوخ فى باب القسم (مقارنةً بالباء والواو) للتعبير عن استغرابهم للموقف .

وفى موقف معرفتهم أن الملك الذى يقفون أمامه هو أخوهم يوسف الذى ظلموه فى يوم من الأيام وألقوه فى غيابة الجب ، وظنوا أنهم قد ارتاحوا منه إلى الأبد ... فى هذا الموقف قالوا : "تالله لقد آثرك الله علينا" (٩١) ؛ لأنهم يرون ما لم يكن يتوقعونه مطلقاً ، فهم (العصبة) وهو الضعيف المسكين الذى احتالوا على أبيه ليتخلصوا منه . ها هو أمامهم عليه تاج ملك مصر ..

يا للعجب إنه إثار الله له عليهم وهم يؤكدون ذلك بالقسم ، ولكنه توكيد مصحوب بدهشة واستغراب ، كغرابة استخدام تاء القسم !!

وفى موقف عدم عودة الابن الصغير (أخى يوسف) مع إخوته وإخبارهم بأبهم أنه سرق ، وما أصابه من حزن وغم شديدين ، قال تعالى " فتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم " (٨٤) .

وعندما سمع إخوة يوسف أسفه على يوسف الذى ضاع منذ سنين ، فى موقف ضياع أخيه ، بلغ التعجب والاستغراب بهم مبلغاً كبيراً ، فأتى كلامهم بتركيب فيه أكثر من أسلوب غير شائع فقالوا : " تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرصاً أو تكون من الهالكين " (٨٥) فالقسم بالتاء ، واستخدام (تفتأ) ، التى هى أعرب أخوات كان^(١) ، وصيغتها المضارعة ، وحذف أداة النفى منها زيادةً فى الإغراب ، وكذلك لفظ (حرصاً) الذى هو أعرب ألفاظ الهلاك^(٢) . بالإضافة إلى تكرار صوت التاء الذى يجعل كلامهم أشبه بالتأتأة^(٣) وهى تردد صوت التاء على اللسان .

كل هذه ألفاظ وأساليب غريبة على الاستعمال اللغوى . أو قل : أقل شيوعاً من غيرها وقد جاءت فى موقف استغرابهم من أنه مازال متعلقاً بيوسف لا ينسأه بعد كل ما صنعوه من أجل الحيلولة بينه وبين رؤية يوسف ، ثم هو يذكر ضياعه وقت ضياع أخيه !!

(١) هذا هو الموضع الوحيد الذى جاء فيه هذا الفعل فى القرآن الكريم .

(٢) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه للأستاذ محي الدين الدرويش ٢٨/٤ .

(٣) قال ابن منظور : ورجلٌ تَأْتَأُ على فَعْلَالٍ وفيه تَأْتَأَةٌ : يتردد فى التاء إذا تكلم ، والتَأْتَأَةُ : حكاية صوت . (لسان العرب مادة تَأْتَأُ) (٧/٢)

ومثل ذلك قولهم المحكى : " تالله إنك لفي ضللك القديم " ، حين عادوا إليه ومعهم قميص يوسف فاشتم رائحته منه ، وعلم أن يوسف مازال حيًا ، فهم يعجبون ويستغربون هذا التعلق الشديد الذى لا يبلى مع طول الزمن وتغير الحال ، فأقسموا بالتاء للتعبير عن غرابة الأمر .

حقًا إنه لكتابٌ مُعجز !! وأىُّ إعجازٍ أعظم من أن يُلقَى السارد العليم على السنة شخوص القصة ما يعبر عنها وعن رؤيتها للموقف ، فتشعر بما يشعرونه وتستكشف عالمهم النفسى المخبوء بأدق أبعاده .

هذه أبرز أمثلة التوكيد الجارية على السن إخوة يوسف ودلالاتها التى تكشف عن أنهم مهزوزون فى أنفسهم يشعرون بعدم ثقة أبيهم وبأنهم ليسوا بحظوة يوسف وأخيه عنده ، كما تعبر عن وقوعهم فى مواقف تذهلهم وتجعلهم فى دهشة واستغراب ، فهى مواقف تأتى دائمًا بما لم يكن يتوقعونه .

إلا أن التوكيد ليس وحده ما يكشف عن دلالات خفية فى اللغة الجارية على السنة إخوة يوسف وإنما هناك بعض الأشكال اللغوية الكاشفة أيضًا عن دلالات خفية منها :

ب- استعمال السين دون سوف مع فعل المرادة :

وذلك فى قولهم الذى يحكيه رب العزة : سناود عنه أباه (٦١) وذلك حين طلب منهم يوسف ، قبل أن يعرفوه ، أن يأتوه بأخيهم الذى بقى مع أبيهم ، وهم يعلمون أن أباهم لن يتركه لهم بسهولة ، وهم مع ذلك يرون أن مخادعته والاحتتيال عليه قريبًا المنال ؛ ولنلاحظ استعمالهم السين ، دون سوف ، للدلالة على القرب^(١) ، واستعمالهم كذلك فعل المرادة بمعنى المخادعة والاحتتيال ، والذى لم يرد فى السورة إلا مسندًا إلى امرأة العزيز ونسوة المدينة فى موقف إرادتهن الفاحشة^(٢) ، وكأن التعبير القرآنى باستعمال هذه الكلمة يريد صرف ذهن المتلقى إلى موقف امرأة العزيز وبشاعته ، لتبشيع موقف إخوة يوسف حين قالوا (سناود عنه أباه) ؛ الذى يشى بمعنى استخفافهم بأبيهم وكأنهم يقولون : إن مخادعة أبينا والاحتتيال عليه قريبًا المنال فهو رجل مُسنّ ضعيف سيستسلم لما نقول ، ويؤكد استخفافهم بأبيهم توكيدهم قدرتهم على فعل هذا بقولهم : (وإنا لفاعلون) . فهم واثقون من قدرتهم على خداع ذلك الأب المسكين .

(١) يقول ابن يعيش : سوف أشد تراخيًا فى الاستقبال من السين وأبلغ تنفيسًا . (شرح المفصل ١٤٨/٨)
(٢) ورد فعل المرادة فى السورة مسندًا إلى امرأة العزيز فى خمسة مواضع ، فى الآيات : ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٥١ . ومسندًا إلى نسوة المدينة فى موضع واحد وذلك فى قوله تعالى حاكيا عن الملك : قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه (من الآية ٥١) .

ت- تقديم الخبر : فى قولهم المحكى "إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أهدنا مكانه" .
فهذا التقديم يبرز عمق الرابطة بين يعقوب عليه السلام وولده لعل ذلك يستثير
مشاعر العزيز (أخيهم يوسف عليه السلام) فيترك هذا الابن ، فإذا لاحظنا تأكيد معنى
الشيخوخة بالوصف (كبير) كان ذلك أكد على رغبتهم فى تحريك مشاعر الشفقة لدى
العزيز ؛ إبرازاً لرغبتهم فى تركه ، ثم هم بعد ذلك لا يقولون (اتركه) بل يبدعون بقولهم
فخذ أهدنا مكانه وكأنهم يقومون بتقديم حل لهذا الإشكال بين يدى العزيز فلا يبقى له
حجة فى أخذه .

ث- حذف المضاف فى قولهم المحكى : وأسأل القرية التى كنا فيها.
فهو فى موقف عودتهم إلى أبيهم دون أخيهم بعد أن احتجزه يوسف فى مصر
لاتهامه بالسرقة ، وهم يعلمون أن أباهم لن يصدق ما يقولون ، فأرادوا أن يبالغوا فى
التأكيد على صدقهم فقالوا "أسأل القرية" وكأن صدقهم معلوم مشهود يعلمه الجميع حتى
القرية والعيير ...

ج- العطف بلفظ (الأهل) على ضمير الإخوة :
وذلك فى قوله تعالى : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ... (٨٨) والنص على
لفظ الأهل مع إمكان الاستغناء عنه ، يبرز حالة الضعف والتذلل فى الإخوة أمام العزيز
، أخيهم يوسف ، وكأن الآية الكريمة تريد الكشف عن تغير الحال الذى جعل هؤلاء
العصبة يقفون أمام أخيهم العزيز وقفة ذل وانكسار ، وقد كانوا فى يوم من الأيام
مجرعيه كأس الذل والظلم ، وتلك الأيام نداولها بين الناس .

ح- توالى صوت الهمزة :
وذلك فى قوله تعالى : أنك لأنت يوسف ... (٩) صوت الهمزة ، كما نعلم ، ينشأ
من انطباق الوترين الصوتين انطباقاً تاماً ، فلا يسمح للهواء بالمرور من الحنجرة ، ثم
ينفجر الهواء فجأة محدثاً صوتاً انفجارياً^(١) ؛ أو يمكن القول : إنه صوت ينشأ عن
انقطاع النفس بانغلاق الوترين ثم اندفاعه بانفتاحهما ؛ لهذا فإننى أرى أن تكرر هذا
الصوت وظهور جرسه فى هذه الآية يعكس حالة الذهول والاضطراب على إخوة يوسف
عندما علموا أن ذلك العزيز الذى يقفون أمامه منكسرين يطلبون منه العون والعطاء هو

(١) انظر على سبيل المثال : فى الأصوات العربية د/كمال بشر ص٧٩ ، وكذلك علم الأصوات د/محمد فتوح ص ١٧٦ .

أخوهم يوسف الذى صنعوا فيه ما صنعوا ، ومن ثم خرج كلامهم متقطعاً متردداً أشبهه بالمتتعة قائلين : أنك لأنت يوسف ؟ وكأن السؤال المحكى عنهم ، بتوالى صوت الهمزة ، حكاية صوت المذهول المشدوه الذى لا يصدق حين تتعثر وتتقطع الكلمات على لسانه فيقول : أ..إ..أ ..

وهكذا تضافرت الأصوات والتراكيب الجارية على ألسن إخوة يوسف فى عكس دلالات عميقة خفية تتعلق بمشاعرهم والمواقف التى يتحاورون فيها .

ثالثاً - أقوال امرأة العزيز :

الأقوال المحكية عن امرأة العزيز ليست كثيرة فقد ورد لها أربعة أقوال هى :

- ١ . قالت : هيت لك (من الآية ٢٣)
 - ٢ . قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥) .
 - ٣ . قالت : فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين (٣٢)
 - ٤ . قالت امرأة العزيز : الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين (٥١) ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين (٥٢) وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربه إن ربه غفور رحيم (٥٣) .
- وهذه القلة النسبية فى الأقوال المحكية عن امرأة العزيز يعكس إرادة النص القرآنى فى الستر على المرأة وعدم ظهورها على مسرح الأحداث كثيراً لا سيما فى موقف مثل هذا الموقف .

ونلاحظ أن هذه الأقوال توزعت بمعدل قول واحد لكل شخصية من شخصيات الأحداث .

فالقول الأول ليوسف عليه السلام

والقول الثانى لزوجها العزيز

والقول الثالث لنسوة المدينة

والقول الرابع للملك

أما القول الأول : (هيت لك) فقد ذكر العلماء أنه اسم فعل أمر بمعنى أقبل أو تعال أو أسرع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : هيت لك ، هلم لك بالقبطية . وقال حسن : هي بالسريانية كذلك وقال عكرمة : هي بالهورانية .. وقال أبو زيد الأنصاري : هي بالعبرانية ، وأصله : هيتلج أى تعاله^(١).

ولا يبعد أن تكون هذه الكلمة فى كل هذه اللغات للتعبير عن رغبة عزيزية هى الرغبة فى الجماع ، وكأنها حكاية صوت لا يختلف بين اللغات ، كقول المتألم : (آه) فهى تصدر بنفس الأصوات تقريباً مع اختلاف اللغات وعلى هذا يكون التعبير القرآنى نقل صورة صوتية حقيقية لامرأة العزيز تعبر عن رغبتها ، دون ترجمتها أو التصرف فيها ، وبذلك تكون هذه الكلمة الصغيرة قد أغنت عن الكثير من الكلام وعبرت عن الموقف أصدق تعبير .

أما القول الثانى فمنها لزوجها عندما رآها ويوسف يستبقان الباب ، فبادرته بقولها : "ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم " (٢٥) .

و(ما) فى كلامها يحتمل أن يكون نفيًا بمعنى : ليس جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا السجن أو العذاب ، وحينئذ يخرج الكلام مخرج التقرير والإخبار .

ويحتمل أن يكون (ما) استفهامية بمعنى : أى شئ جزاؤه إلا السجن ، كما تقول : من فى الدار إلا زيد؟^(٢). وحينئذ يخرج الكلام مخرج تجاهل العارف . وتجاهل العارف هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقةً تجاهلاً منه لنكتة .

ومهما يكن من أمر هذا الأسلوب – إخباراً كان أو استفهاماً – فإن امرأة العزيز لم تصرح باسم يوسف ، وإنما استخدمت الموصول العام (من) ؛ وذلك لأنها تريد تخويف يوسف تخويفاً يثنيه عن ثباته فى موقفه الراضى للانصياع لإرادتها ، تريد أن تخوفه ذلك التخويف الذى لا يصل إلى حدّ قطع رجائها فى استمالته لها ، فهى تلوح له بالعقوبة دون أن تصرح باسمه ، فلربما يهزهز هذا التلويح عصمته ويجعله يومئ لها بما يعبر عن رضوخه لإرادتها وهذا يعكس أن امرأة العزيز مع صدود يوسف عنها ، وانجراح كرامتها ، وتعقد الموقف بظهور زوجها مازالت تملك الأمل فى انقياده لها ومازالت تتشبث بالرغبة فى إيقاعه فى شركها .

(١) الإيقان ١١٨/٢ .

(٢) الكشف ٤٥٩/٢ .

أليست هي التي أعلنت بكل صراحة وإصرار مقولتها المؤكدة " ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين " ، ولم تمنعها كرامتها وهي أنثى ، ولم يمنعها حيائها ووضعها كامرأة العزيز من التصريح بهذا أمام أترابها من نسوة المدينة .

وقولها لنسوة المدينة جاء فيه نونا توكيد : الأولى نون ثقيلة في قولها المحكى " ليسجنن " والثانية نون خفيفة في قولها المحكى : " ليكوناً من الصاغرين " وقد أشرنا قبل قليل إلى أن النحاة قد ذكروا أن نون التوكيد الثقيلة أشد توكيداً من نون التوكيد الخفيفة⁽¹⁾. وهذا يعني أن امرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجنه من كونه صاغراً ؛ لأنها كانت تتوقع حبسه في بيتها فتقرب منه وتراه كلما أرادت⁽²⁾.

وهذا يدل على أن حبه قد أحكم أزمته على كيانها ، فرغبتها في أن يظل قريباً منها حتى بعد صدوده لها وانجراح كرامتها أمامه رغبة متأججة ناشئة عن اعتلاق قلبها به ، فهي لا تريد له ذلاً ومهانة بنفس درجة إرادتها أن يسجن ليكون قريباً منها .

ثم تأتي المقالة الأخيرة لامرأة العزيز ، وهي المقالة التي تنكشف بها الحقيقة حين قالت فيما يحكيه عنها رب العزة : " الآن ححص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين " أى الآن بعد أن اعترفت نسوة المدينة بالحقيقة أمام الملك ظهر الحق وبرز ، ثم اعترفت اعترافاً صريحاً : " أنا راودته عن نفسه وتقديم المسند إليه (أنا) ؛ لنفى أدنى شك قد يساور المتلقى في حدوث المراودة من غيرها ، أى أن امرأة العزيز تريد أن تزيل أدنى ريبة في يوسف ؛ وذلك بإقرار الانفراد بالمراودة والاستبداد بها ، وهذه هي الدلالة العميقة المتوخاة⁽³⁾ من تقديم المسند إليه على المسند .

يقول عبد القاهر في الدلائل : " ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت في معنى فلان ، وأنا شفعت في بابه ، تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به وتزيل الاشتباه فيه ، وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتبت ومن البين في ذلك قولهم : أتعلمنى بضبُّ أنا حرشته⁽⁴⁾ .

(1) الكتاب ٥٠٩/٣ . .

(٢) حاشية الصبان ٢١٢/٣ .

(٣) انظر تعريف الدلالة العميقة ومواطن ظهوره في بحث : التفاعل النحوى والدلالة العميقة ١٣١/١ من كتاب المؤتمر الدولى الرابع لقسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم للباحث .

(٤) دلائل الإعجاز ص ١٢٨ .

ومن الملاحظ أن جملة امرأة العزيز فى تبرئة يوسف : " أنا راودته عن نفسه " توازى جملة يوسف فى تبرئة نفسه : " هى راودتنى عن نفسى " . وكأن الجملتين تتعاضدان على نفى الشك فى يوسف ، بحصر المرادة فى امرأة العزيز . وهى إن كانت برأت ساحة يوسف وخلته من تهمة المرادة فإنها إمعاناً فى الاعتذار له – أكدت تحليه بالصدق (بآن واللام) مما يؤكد انتفاء شبهة المشاركة فى المرادة عنه .

وقد اختلف المفسرون فى قوله تعالى : " ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين (٥٢) وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربه إن ربه غفور رحيم (٥٣) .

أهو من كلام امرأة العزيز أم من كلام يوسف عن العزيز ؟ والأرجح فى رأى أنه من كلام امرأة العزيز عن يوسف ؛ لأنه لا داعى لصرف الكلام عن مصدره ، فكلام امرأة العزيز موصول ، فهى قد اعترفت بالمرادة وتفردا بها وأكدت على اتصاف يوسف بالصدق ؛ ثم بينت أن إقرارها بالحقيقة ليعلم أنها لم تخنه فى غيبته برميته بتهمة هو منها برىء، وأنها مع إقرارها واعتذارها له لا تبرئ نفسها فإن النفس أمارة بالسوء إلا التى رحمها الله ... فالكلام موصول وهو واقع تحت قوله تعالى : "قالت" وصرفه إلى غير ذلك فيه تكلف وخروج عن مقتضى الكلام دون داع . وقد ذهب أبو حيان^(١) هذا المذهب .

(١) انظر البحر المحيط ٣١١/٥ .

خاتمة البحث

أن لنا الآن أن نريح اليراع بأن نستخلص أهم ما توصل إليه البحث من نتائج :

١. اشتملت قصة يوسف على أقوال عربية لشخصيات لا تتكلم العربية ، ومن ثم تحملت اللغة المحكية عنهم وحدها مهمة التعبير عن أدق مراداتهم ، وتصوير أحوالهم النفسية والشخصية بدقة متناهية .

٢. عكست لغة الشخصيات المختارة في القصة الكثير من سماتهم الشخصية والنفسية ؛ فيوسف عليه السلام شخصية هادئة لا يتكلم ويطلب الكلام إلا في مقام الدعوة لله والثناء عليه جلّ وعلا . وهو كذلك ذكي لا يكثر الطلب إلا إذا كان في موضع قوة تكفل له أن يكون مجاباً فيما يطلب ، كما أنه حيي عف اللسان يتجنب ذكر القبيح من القول ويكنى عنه ويحفظ الجميل لأهله ، ذو حس مرهف يجعله لا يبيك من أساءوا إليه وإنما ينسب زلاتهم إلى الماضي .

وإخوة يوسف مضطربو النفسية مهزوزون تجرى أساليب التوكيد على لسانهم كثيراً دونما داع ، اللهم إلا ما يشعرون به من فقدان الثقة فيهم وبخاصة من قبل أبيهم ، الذي كانوا ينظرون إليه نظر استخفاف يسول لهم مخادعته والاحتيال عليه باستمرار وثقتهم في أنه واقع في حبال مرادتهم لا محالة . وهم مع هذا ليسوا أذكياء يحتالون للحصول على الشيء بنفس الأسلوب القديم والمكشوف كذبه ، فيكررون أمام أبيهم نفس الإدعاء القديم الذي رفعوا لواءه مبيتين الخلاص من يوسف (إنا له لحافظون) ، فهاهو نفس الادعاء ونفس الألفاظ يرفعون لواءه لأخذ أخى يوسف من أبيه ، فما كان من يعقوب إلا أن استرجع الماضي الأليم الذي ضاع فيه يوسف فقال لهم ما يحكيه عزّ اسمه : "هل آمنكم عليه إلا كما آمنكم على أخيه من قبل" .

كما تكشف لغتهم عن درجة من التعالي ، فهم عصبية كما يقولون حتى بعد أن وقفوا أمام يوسف يستجدونه العطاء منعتهم كبرياؤهم عن الاعتراف الكامل والقوى بالخطأ واكتفوا بقولهم : إن كنا لخاطئين . وكان اعترافهم بالخطأ أكمل وأقوى أمام أبيهم حين قالوا له : إن كنا لخاطئين . وقد بينا ما بين التعبيرين من فرق في متن البحث . كشفت لغتهم كذلك عن طبيعة المواقف التي كانوا يقعون فيها ، فهي مواقف تذهلهم وتصيبهم بالدهشة كموقف اتهامهم بسرقة العزير ، وموقف اكتشافهم أن العزير

الذى يقفون أمامه هو أخوهم الذين ظنوا أنهم قد خلصوا منه ، وموقف ذكر يعقوب ابنه يوسف وقت ضياع أخيه مما جعل دهشتهم تبلغ مداها فأتى كلامهم بألفاظ غريبة أو غير شائعة للتعبير عن غرابة موقف يعقوب عندهم . وقد بين البحث بعض هذه الألفاظ الغريبة أو قليلة الاستعمال مثل : تاء القسم ، تفتأ ، حرض .
ومن الألفاظ التى عبرت عن مواقف الدهشة والاستغراب توالى صوت الهمزة فى قولهم المحكى : أنك لأنت يوسف ، وكذلك نوالى صوت التاء فى قولهم المحكى : تالله تفتأ تذكر يوسف .

أما امرأة العزيز فقد كشفت لغتها عن ولعها الشديد بيوسف ورغبتها فى جواره لها حتى وإن كان الجوار بالسجن ، كما صورت لغتها حالتها عند المراودة باستعمالها لفظة هيت التى لم يستبعد البحث كونها كلمة غريزية مشتركة بين البشر باختلاف أجناسهم ولغاتهم كلفظة آه للمتوجع وبذلك يكون التعبير القرآنى قد نقل الصوت كما هو من لسان زليخا دون تصرف فيه ليكون أبلغ وأدق فى رسم صورة حدث المرادة .

٣. التعبير البليغ فضلاً عن التعبير القرآن هو الذى يكتنز بالعديد من المعانى المستورة وراء الألفاظ بمعانيها المعجمية والمتمثلة فى أسلوب النظم المتمثل فى بناء الصيغة والرتبة وقضايا التضام من فصل واعتراض وحذف وزيادة ، فهذه المسائل تحتوى على بدائل متاحة على البليغ أن يختار منها بطبعه ما يعبر عن أدق المعانى التى تتجاوز المعانى المعجمية للمفردات ، وعى المتافى كذلك أن يكون واعياً ومدركاً للفروق الدلالية بين هذه البدائل المتاحة وعليه كذلك أن يوظف ما يدركه من دلالات فى خدمة المقام بنوعيه الداخلى وهو ما يتعلق بنفسية منشئ النص أو الموضوع على لسانه النص كما فى حالة حكاية القول ، أو الخارجى وهو ما يتعلق بطبيعة الموقف أو الزمان أو المكان الذى يحيط بالنص ، فكل هذه العناصر المقامية هى مُشكلات أسلوبية يُبنى الأسلوب عليها ويعبر الأسلوب عنها بما يحقق للقارئ الواعى متعة النص .

مراجع البحث

- الإِتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، سنة ١٩٩٧ .
- إعراب القرآن الكريم وبيانه للأستاذ محي الدين الدرويش ، بدون تاريخ .
- البحر المحيط لأبى حيان ، تحقيق الشيخ عادل عبد الموجود وآخرين ، دار الكتاب العلمية ، ط١ ، سنة ٢٠٠١ م .
- التفاعل النحوى والدلالة العميقة ١/١٣١ بحث للدكتور أحمد جمال الدين فى كتاب العربية والدراسات اللبينية ، المؤتمر الدولى الرابع لقسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم .
- الجنى الدانى صنعة الحسن بن القاسم المرادى ، تحقيق فخر الدين قباوة و محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١٩٩٢ م .
- حاشية الصبان على شرح الأشمونى ، دار الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابى الحلبي .
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- شرح المفصل لابن يعيش ، عالم الكتب ، بيروت ، ومكتبة المتنبى ، القاهرة دون تاريخ
- علم الأصوات د/ محمد فتوح ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٣ م .
- فى الأصوات العربية للأستاذ الدكتور/كمال بشر، مطبعة المدينة دار السلام ١٩٨٤ .
- قصص الأنبياء لابن كثير ، ضبطه وعلق عليه محمد عبد القادر الفاضلى ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠١ م .
- الكتاب : سيبويه (عمرو بن عثمان) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . دار الجيل ، الطبعة الأولى بدون تاريخ .
- الكشاف للزمخشري ، دار الكتاب العربى ، رتبه وضبطه ، مصطفى حسين أحمد ، بدون تاريخ .
- لاكان العودة إلى فرويد وأسلحة التحليل النفسى لمالكولم بوى ترجمة عبد المقصود عبد الكريم على الرابط :

http://www.nizwa.com/volume14/p31_50.htm

- لسان العرب لابن منظور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٩٩ م.
- معنى اللبيب . لابن هشام ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية الطبعة الأولى ١٩٩٩ م .